أقوال لاو تزو للاو تزو

بقلم
الأستاذ فؤاد محمد شبل

١ — حياة لاو تزو وعصره

تختلف آراء الباحثين فى الفلسفة الصينية ؛ فيما إذا كان لاو تزو شخصية حقيقية، أم أسطورية . ويظن البعض أن فلاسفة التاوية قد افتعلوها لتقف نداً للكنفوشيوسية فى العراقة والأصالة .وتعنى كلمة « لاو » فى الصينية : الرجل المسن ، كما تعنى كلمة « تزو » المعلم ؛ فالاسم بأسره يعنى « المعلم العجوز » . ولا يظهر فى الكتاب المتضمن آراء لاو تزو والذى يحمل اسمه — ويعرف كذلك باسم تاوتى تشينج — اسم لاو تزو أو اسم أى شخص آخر .

لكن ورد فى سجلات المؤرخ — وهى أقدم مرجع فى التاريخ الصينى — اسم لاو تزو. فذكرت أنه سيد من النساك عاش أكثر من مائة وستين عاماً ، وأنه اجتمع بأحد أمراء الصين بعد وفاة كنفوشيوس بزمن طويل . وتقرر مصادر صينية أخرى — ظهرت بعد كتاب سجلات المؤرخ — أن لاو تزو قد عاصر كنفوشيوس معلم الصين الأول وحكيمها العظيم ، وأن اسمه الأصلى « إرخ » Erh واشتهر باسم « تان » Tan واسم عائلته « لى » Li . ومن ثم نجد بعض المصادر الأوربية تردد اسم « لاو تان » و « لاو تزو » تارة أخرى :

وقد عهدت إليه حكومة مملكة « تشو » Chow شئون وثائقها التاريخية . ويقال إن كنفوشيوس جاء للقائه رغبة فى الاطلاع علي ما تحت يده من مراجع تتصل بموضوع الشعائر والطقوس . فقال له لاو تزو : « إن ما تتحدث عنه يتعلق بكلمات أناس ماتوا ولم يبق منهم سوى عظام نخرة . تخلص أنت من عجرفتك ومن جسارتك ، وابتعد عن الطموح والادعاء . فهذه الصفات تحيق بشخصك أبلغ الإضرار . وهذا هو كل ما لدى » .

وعندما غادر كنفوشيوس مجلس لاو تزو — كما تذكر سجلات المؤرخ — قال لمريديه « أعرف أن فى قدرة العصفور أن يطير ، والسمك أن يسبح ، والوحش أن يعدو : فالعصفور تعد له النبال ، والوحش تهيأ له الشباك ، والسمك يصنع له الشص . لكن التنين المتوارى خلف السحاب وتدفعه الرياح صوب السماء أبعد عن مداركى . . ولعل لاو تزو تنين » .

ولقد تعرض لاو تزو لتأثيرين أساسيين : المهنة والبيئـــة :

فهو قد شغل منصب أمين مكتبة الوثائق التاريخية والمشرف على تدوين تاريخ بلده . فأتاح له هذا معرفة وثيقة بالأحداث المختلفة ، وبتطور أحوال بلده . كما أكسبته اتصالاته بالناس على اختلاف طبقاتهم ، تجارب اجتماعية ثمينة ومعرفة وثيقة بنفسياتهم .

ومن الناحية الأخرى ؛ صاغت البيئة — التى نشأ وعمل فى محيطها — آراءه وكيفت مبادئه . وكان لسوء أحوال موطنه أكبر الأثر فى توجيه تفكيره السياسى والاجتماعى ، هذه الوجهة التى نلمسها فى كتاباته . فلقد حفل عصره بتقلقل الأوضاع الاجتماعية وزعزعة القيم الخلقية وسريان الجشع فى النفوس ، حتى انعدم الولاء وشجر العداء بين الناس.

وكان لاو تزو — بحكم عمله مؤرخاً — بصيراً بماضى الصين الزاهر ، عالماً بأسباب تداعى أوضاعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية الحاضرة ، مدركاً بعوامل قوة الحكم وضعفه . ويطلق على كتاب لاو تزو اسم « الكتاب ذو الخمسة آلاف كلمة » لصغر حجمه . بيد أن تأثيره هائل على الفكر الصينى فى جميع مراحله .

وتعتبر الفترة التى ظهر فيها كتاب لاو تزو من أخصب فترات الفكر الصينى ، حتى لقد أطلق عليها « عصر المدارس الفكرية المائة » . فلقد استمتع الأساتذة والفلاسفة خلالها بحرية مطلقة فى نشر آرائهم ، وحظوا بتقدير الناس أدبياً والحكام مادياً . وكانت أبرز المدارس الفلسفية وقتذاك :

١ — مدرسة كنفوشيوس : وظهرت خلال القرن الخامس قبل الميلاد . وقد بشر كنفوشيوس بأسلوب للحياة تشغل فيه الأخلاق مكاناً علياً ، وتنعدم الصلة بين الأخلاق والمنفعة الذاتية . ويوجب كنفوشيوس مراعاة مقتضيات الأخلاق الفاضلة ويدعو الناس إلى التضحية بالحياة — إن اقتضى الأمر — حفاظاً على التبعات الخلقية . ومن رأيه أن واجبات الإنسان تتحدد بطائفة من العلاقات : فعليه واجب الولاء لحاكمه ، وواجب بنوى تجاه والديه ، وواجب تجاه أصدقائه ، وواجب التعاون مع بقية الناس لكفالة الخير للإنسانية . وتتفاوت أنواع هذه الواجبات فى أهميتها : ففى المقدمة ولاء الإنسان لأولى الأمر ولوالديه . فلو التزم الإنسان الخلق القويم وأدى واجباته بأمانة ، لساد النظام واستقرت الأمور .

٢ — مدرسة موتزو : ظهرت خلال القرن الخامس قبل الميلاد . ومدار فلسفتها أنه طالما أن ثمة واجبات تتفاوت فى ضرورتها ، فلا مناص من وجود تمايز وتفارق . وبالتالى ؛ لن يتيسر جبّ المنازعات تماماً . ومن قبيل المثال : أنه قد يحيق إنسان ضرراً بآخر أثناء تأديته واجبه حيال والديه . وهذا ما يدعو موتزو إلى المناداة بمبدأ « الحب الشامل » . ومناط المبدأ أن يحب الإنسان بقية الناس حبه لشخصه وكحبه والديه . وقد ربط هذا المبدأ برباط دينى وثيق بقوله إن السماء تأمر بأن يحب الناس بعضهم بعضاً دون تمييز ، ومن يخالف إرادة السماء تعاقبه عقاباً صارماً .

فالى جانب هاتين المدرستين الفكريتين وغيرهما ؛ شيد لاو تزو مدرسة فكرية عرفت باسم « التاوية » . وكلمة « تاو » — أساساً — تعنى السبيل والنهج .

٢ — استعراض كتاب لاوتزو

يعتبر كتاب لاو تزو من أقصر المراجع الصينية ، لكنه من أكثرها إثارة وأعظمها إلهاماً . ويتميز الكتاب بما يضمه بين دفتيه من اتجاهات استجرادية وباطنية ، وبنزوعه إلى المتناقضات . وبه شرح لأول فلسفة فى العالم دعامتها التعمية والتمويه ، بما تلقنه من حكمة التظاهر بالغباء والحمق ، وتبديه من توفيق من يظهر عجزه ومنقصته . فعندها أن القوة فى الضعف ، والربح فى القناعة ، والسلامة فى البقاء فى المنزلة الواطئة ، والفائز

من يسلم لخصمه ، ولا ثمرة ترتجى من الصراع فى سبيل القوة :

ويعرض لاو تزو آراءه فى هيئة حكم مأثورة تتكرر المرة بعد الأخرى . وفي الوسع حصر هذه الآراء فى النقاط التالية :

ايقاع الحياة - وحدة العالم بأسره والظواهر البشرية - أهمية المحافظة على البساطة الأصيلة للفطرة البشرية - خطورة تغالى الحكومة فى التدخل فى حياة البشر - مذهب حرية العمل - تأثير الروح الشامل - عبر التواضع - السكينة والهدوء - القوة حمقاء والكبر سبة وحب التسلط جنون .

وقد ألف كتاب لاو تزو إبانفترة حفلت بالقلاقل السياسية والجيشان الفكرى . ولهذا فانه - مثل غيره من الكتب التى ألفت خلال هذه الفترة - يهتم بعرض فلسفة للحكم وأسلوب لحياة الطبقة الحاكمة . على أن وجهة نظر الكتاب فى معالجة مشكلات الحكم أوسع نطاقاً - بما لا يقاس - مما توحى به هذه العبارة . إذ تستند تعاليم لاو تزو على مبدأ جوهرى عظيم يتبلور فى كلمة واحدة « تاو » التى اشتق منها تعبير « المدرسة التاوية » . والتاو عند لاو تزو هو مصدر الكائنات جميعاً ، وهو الذى يسوس جوانب الحياة بأسرها سواء أكانت بشرية أو غير بشرية ، وهو الوحدة الأساسية التى لا تتجزأ والتى تحل فيه - فى نهاية المطاف - جميع متناقضات الوجود ومفارقاته .

ويبحث جانب كبير من الكتاب فى طبيعة هذا السبب الأصلى وأسلوب عمله . على أنه يسلم بضرورة بقائه - بصفة أساسية - مدلولا لا يوصف ولا يدرك إلا من خلال نوع من الاذعان والسلبية ، وبانتفاء الصراع والارغام ؛ كما يتسم بطريقة للفعل : تلقائية - لا جهدية - لا يفرغ لها معين :

وفى المجال البشرى ؛ يصف كتاب لاو تزو الإنسان الكامل (ويطلق عليه الحكيم) بأنه على بصيرة بمبدأ التاو الخفى وأنه يتولى ترتيب حياته وتبويب أفعاله وفقاً لأحكامه . وعلى من يرنو إلى إدراك مبدأ التاو أن يكسر شوكة نفسه ويلتزم الهدوء ويصطنع السلبية ويتحرر من الرغبة وينأى بنفسه عن الشحناء :

فظاهر أن لاو تزو يتصور الحكيم حاكماً مثالياً . فانه يحدد طائفة من الوصايا يدعو الحكيم إلى انتهاجها فى سياسته شؤون الحكم :

أولا : لا يتدخل فيما لا يعنيه من أمور الناس .
ثانياً : تجنب الحرب :
ثالثاً : إحتقار الترف
رابعاً : يعمل للعودة بشعبه إلى حالة البراءة ، والبساطة والانسجام مع الطبيعة (أى التناسق مع التاو)

ويقرر حكماء الصين أن تلك حالة سادت بلادهم فى سالف العصر والأوان قبل ظهور المدنية بما حملته معها من أوزار الرغبات المادية ، ودفعها الناس إلى الشحناء والتقاتل ، وقبلما يبتكر الحكام المناصب والألقاب البراقة للتغرير بالناس واصطناع القيم الزائفة لتخدير أذهانهم .

والاغراق فى الغموض هوالطابع الأساسى لكتاب لاو تزو ؛ حتى أن المفسرين قد استخلصوا من دراسته نتائج يباين بعضها بعضاً :

١ - هناك من فسروه بأنه دعوة لحرية العمل وغل يد الحكومة إلى أبعد الحدود الممكنة عن التدخل فى أمور الأفراد :

٢ - واعتبره آخرون منهاجاً للنساك والراغبين فى اعتزال المجتمع لينصرفوا إلى تحصيل العلم واجتناء ثمار الحكمة . ولهذا السبب أصبحت التاوية - خلال فترة طويلة من تاريخ الصين - فلسفة الفرد الصينى المثقف وعزاءه وقلما يعتزل الحياة العامة أو يصيبه الاخفاق ،

أو بهجر مجتمع البشر ناشداً الاتحاد مع عالم الطبيعة ، سيما وأن التاوية تعنى بوسائل الاستجابة لتحديات عالم البشر .

٣ — طبيعة اصطلاح التاو عند لاوتزو

كلمة تاو Tao من أهم الاصطلاحات فى الفلسفة الصينية . وكانت تعنى فى الأصل — كما ذكرنا — « الطريق » أو « النهج » أو « السبيل » . وكان اللفظ يحتوى فى العصور السابقة لظهور لاو تزو على مضمون يبتعد — شيئاً ما — عن المضمون المادى ، كالقول « سبيل الإنسان » (أو طريقه أو نهجه) ، ويقصد به الأخلاقية البشرية والسلوك والحق . واقتصر استخدام الكلمة — وقتذاك — على الشؤون البشرية . ولعل لاو تزو هو أول من استخدم كلمة « تاو » استخداماً ميتافيزيقياً محضاً . فهو الذى جاهر بأن الكون قد انبعث وفقاً لمبدأ شامل سبق وجوده يطلق عليه « تاو » . فالاصطلاح عند لاو تزو يماثل اصطلاح « الكلمة » فى الأديان السماوية :

ويطالعنا لاو تزو بالتعريف التالى لـ « تاو » :

« ثمة شئ لا صورة له ، إلا أنه كامل . قائم قبل أن توجد السموات والأرض . لا صوت له ولا جوهر ، موجود لا يتغير ، يتخلل كل شئ . إنه منشأ جميع ما فى الكون ، لا نعرف اسمه لكن نصطلح عليه بكلمة تاو وكنيته العظيم . يسلك التاو العظيم هذا الطريق أو ذاك ، ويدين إليه بوجوده الآلاف المؤلفة من المخلوقات . لا حصر لمآثره ، هو الرداء الذى يكسو ملايين الأشياء ويرقى بها » .

ويتبين لنا من هذه العبارة — وغيرها — أن الذاتية التى يطلق عليها لاو تزو لفظ « تاو » قائمة قبل ظهور الكون . وتلك لديه حقيقة مطلقة لا نزاع فى شأنها ، وتتألف من جوهر أصيل . ويكفل هذه الأصالة ، وجود كون لانهائى أقامته هذه الحقيقة بنفسها وهى التى تتولى الحفاظ عليه .

وإذا كان الـ « تاو » هو مصدر ملايين الأشياء ، فلا يمكن — كما يقول لاو تزو — أن يصبح شيئاً كبقية الأشياء . إذ يمكن أن يقال عن الأجسام أنها « كائنة » ؛ لكن الـ« تاو» ليس مادة ، ومع ذلك فانه هو الذى بعث الكون المادى إلى الوجود . ولهذا السبب يتحدث عن التاو بأنه كائن وغير كائن : فهو غير كائن إن أشير إلى جوهره الذى يخالف جوهر الأشياء جميعاً ، وهو كائن إن أشير إلى فعله .

وبالتالى ؛ يرى لاو تزو أن «الكائن» و « اللاكائن» قد تفجرا عن التاو ، فهما بالتالى مظهران له . ويستطرد قائلا :

« أبرز التاو الوحدانية ، وأنتجت الوحدانية الثنائية وينبعث الثالوث عن الثنائية ، ويتفتح الثالوث عن الحشود التى لا حصر لها من الأشياء . فالسماء والأرض وملايين الملايين من الأشياء تنبعث عن « الكائن » ، والكائن هو ناتج « اللاكائن » ، لكن ليس اللاكائن هو الصفر أو العدم » .

ويقول لاو تزو فى موضع آخر من كتابه :

« لا يدرك التاو باللمس ، يمتنع عن القياس . ومع ذلك تكمن فيه نماذج الأشياء وأصولها ، ويضم بين طياته الذاتية والوجود .

ويقصد لاو تزو بعبارة « لا يدرك باللمس ويمتنع عن القياس » ، خلوه من الجوهر المادى . فى حين تعنى عبارة « تكمن فيه نماذج الأشياء وأصولها » أنه ليس « لاكائن الصفر » .

وإذا كان التاو هو المبدأ الشامل الجامع يصعب — والحالة هذه — تمييزه باطلاق اسم عليه على غرار ما يطلق من أسماء على جسم ذى وجود فردى لتمييزه عن غيره . ذلك لأن لجميع الأسماء قوة التحديد والتعيين :

فاذا ما أطلقنا اسما على شئ ؛ نكون قد حددناه وميزناه عن غيره ، من الأشياء المحددة المعينة بأسمائها . فأما الـ « تاو » فانه — وفقاً لرأى لاو تزو ومن تبعه من تلامذته — فهو كائن فى كل مكان وهو كل شئ .

وإن التاو هو خالق الكون ؛ فكرة طريفة فى الفلسفة الصينية . فالمراجع الصينية التى ظهرت قبل كنفوشيوس — مثل كتاب الأناشيد وكتاب التاريخ — تقرر بأن السماء هى التى خلقت الكون . ويردد كنفوشيوس هذا الرأى فى مختاراته كما يردده كل من « منشيوس » و « هسون تزو » . أما كلمة تاو فقد أستخدمت فى تلك المراجع بمعنى سبيل شئ ما ، وأن استخدمت مع لفظ « الإنسان » لقصد بها السبيل الذى يجب على الإنسان سلوكه .

والأمر يختلف فى كتاب لاو تزو :

إذ لا يعنى لفظ « تاو » سبيل شئ ما ، لكن بات يكوّن — لديه — ذاتية مستقلة تماماً ، حرة حرية مطلقة وتقوم مقام السماء فى جميع وظائفها وأعمالها ، لكن الـ « تاو » هو — كذلك — السبيل الذى يسلكه الكون الجامد ، كما يسلكه الإنسان العاقل .

فلا بدع والحالة هذه ؛ أن يصاب دارس لاو تزو — فى بعض الأحيان — بالبلبلة الفكرية تجاه تفسير اصطلاح « تاو » بأنه ذاتية (أى كيان) وبأنه مبدأ مجرد .

ويصف لاو تزو حركة التاو بأنها «رجوع وتحول» ويفسر بعض الباحثين هذا القول بأن التاو تتسبب فى خضوع جميع الأشياء لعملية تغير دورى : فلا مناص من تحول الضعيف إلى قوى ؛ ولكن عندما تصل عملية التقدم هذه أوجها ، تحل مرحلة التأخر فينقلب القوى ضعيفاً ؛ فاذا بلغت مرحلة التأخر أدنى حدودها ، أخلت السبيل مرة أخرى لمرحلة من التقدم ، وبالأحرى ثمة دورة لانهائية من التقدم والتأخر .

٤ — تصور لاوتزو للكون

يستند رأى لاو تزو عن الكون على مذهب الطبيعة فهو يسلم بوجود علة أصلية ، كما يعترف بتجلى قوة عليا ، فهو القائل « ثمة شئ لا يعرف ولا يحدد ، يتصف بالكمال قائم قبل السموات والأرض . فبأية كيفية هو ساكن وغير ذى صورة ، راسخ بمفرده ويحيط بكل شئ علماً ، ولا خطر عليه من الاستنفاد . هو أصل جميع الأشياء ، لا يعرف له اسم لكننى أعرفه بكلمتى « تاو العظيم » .

وإذا كان الغموض يغلب على تعريفه ، لكن فكرته عن كائن أعلى لا يتغير ولا قيد على سلطانه ، شبيهة — نوعاً ما — بفكرة الأديان السماوية عن « المطلق بدون بداية وبغير نهاية » . ويلاحظ أن لاو تزو يضيف صفة « العظيم » إلى لفظ « تاو » حتى لا تختلط مقصده مع حرفية اللفظ ويعنى — كما قلنا — السبيل أو الطريق أو النهج .

ويقرر لاو تزو أن التاو كونت الواحد ، والواحد أحدث الاثنين ، والاثنان ولدا الثلاثة ، وأوجدت الثلاثة (بمعنى الخلق) جميع الأشياء ، فالموجود قد انبعث من العدم .

ويذهب بعض المفسرين إلى إيمان لاو تزو بالوحدانية لرده خلق الكون بأسره إلى التاو . بينما يذهب آخرون إلى أن قوله أن ثلاثة توجد جميع الأشياء يعنى إيمانه بالتثليث ، وبالتالى فقد أرهص بجوهر المسيحية قبل ظهورها بستة قرون .

ولقد أخذ الكون بمجامع أفكار مريدى لاو تزو وخلب ألبابهم . وهذا ما نجده فى كتاب تشوانج تزو — وهو المعلم الثانى للتاوية — إذ يتساءل :

« هل تدور السماء حول محور ؟ هل تقف الأرض ساكنة ؟ هل تتنازع الشمس والقمر مركزيهما ؟

من ذا الذى لديه الوقت لتحريكهما ؟ هل ثمة نوع من الابتكار الآلى يدفعهما إلى التحرك التلقائى ؟ هل ينحصر الأمر فى دورانهما حول محور لا محيص لهما من الدوران حوله تحت تأثير قصورهما الذاتى ؟ هل تصنع السحب المطر أو أن المطر هو الذى يكوّن السحب ، وما الذى يُسقط المطر بغزارة ؟ »

وتحت تأثير نظرة الحب العميق للكون وللطبيعة المجردة صلك التاويون تعبيرهم المأثور « كل منظر يسر ، والإنسان وحده هو الخسيس » . وإذ ينفرون من عالم الناس ، ينصحون بهجر الإنسان له . ولهذا تعنى كتابات التاويين — بصفة خاصة — بتصوير النساك وصيادى الأسماك والفلاحين فى معيشتهم منفردين ، فى اتحاد مع الطبيعة .

ويخبرنا تشوانج تزو :

« الكون هو وحدة جميع الأشياء . فلو سلم الفرد بذاتيته مع هذه الوحدة ، تصبح فكرة الموت والحياة لديه ، وكذلك البداية والنهاية — وهى التى تعكر صفو حياته — مجرد تعاقب النهار والليل » .

واطراد العمليات الكونية ، هو الذى يدفع لاو تزو ومريديه إلى النصح بالتزام السلبية . إذ تتواصل حركة المظاهر الكونية فى نظام بديع يبلغ ذروة الكمال ؛ ومع ذلك — كما يقول تشوانج تزو — لا تتحدث قط . فالفصول الأربعة تتبع نظاماً واضحاً دون حاجة إلى نقاش أو لجاج ؛ وتسير جميع الظواهر الطبيعية المتعددة وفقاً لمبادئ محكمة . والحكيم العظيم هو الذى يسعى لفهم أسرار الطبيعة ويعنى باستقراء مكنوناته . وبعبارة أخرى يتبلور واجب المرء فى الحياة فى « تأمل الكون » .

وإجلال لاو تزو للطبيعة يدفعه إلى نقد فكرة كنفوشيوس عن الأرض والسماء ، إذ يرى كنفوشيوس أن الطبيعة هى مجرد زوال ، لأنها تزهر وتستطيل فى الربيع ثم تذبل وتفنى فى الخريف والشتاء فى حين أن الطبيعة — وفقاً لرأى لاو تزو — بناءة وتعمل لخير الإنسان . وإذا كان ثمة صراع وتقاتل على الأرض بين مختلف المخلوقات ، فلا صلة له بعمل الطبيعة الأصيل القائم على الخير والابداع .

٥ — نظرة لاوتزو إلى الحياة

تأثرت نظرة لاو تزو إلى الحياة بالأحداث الرهيبة التى مرت بها الصين واستمرت ٢٤٢ عاماً . وحسبنا القول ؛ أن التاريخ الصينى قد سجل خلال هذه الفترة ستاً وثلاثين حادثة قتل الملك ، نصفها ارتكبه أبناء الملوك أنفسهم . وهذا يفسر دعوته إلى التزام السلبية .

وهو يعزو الفوضى التى تنتشر فى البلاد إلى تعاليم الحكماء ، فيتهمهم بمجافاة المنطق عند عرض حكمتهم . ويشير لاو تزو هنا إلى تعاليم كنفوشيوس ، فهى — فى رأيه — إذ تعلى من شأن الولاء للوالدين وللحاكم ، تضعف العلاقات البشرية الأخرى . كما يغالى كنفوشيوس فى ولاء الوزير لشخص الحاكم مهما نافت سياسته مصالح البلاد ؛ ويعتبر لاو تزو هذا التغالى عاملا من عوامل الفوضى التى شاعت فى البلاد . ويتهم لاو تزو كنفوشيوس باقامة أنماط خلقية مصطنعة تبث فى معتنقيها رغبة عارمة للحيازة والتملك . إذ يرى لاو تزو أن للخلق الطبيعى خفقة إبداعية تحقق للحياة والحرية ، التقدم المستمر والانطلاق المتصل صوب الارتقاء . فى حين يخضع الخلق المصطنع الناس لاستعباد التقاليد واسترقاق العادة والعرف .

والجد فى طلب العمر الطويل والتماس الخلود ؛ غايتان هامتان للتاوية ، دفعا التاويين إلى التنقيب عن إكسير الحياة مما قاد إلى ارتقاء الكيمياء الصينية على أيديهم . على أن التاوية تسلم بأن الموت أمر لا محيص عنه . وعندما يموت المرء ، يتلاشى هذا الشعور بالوجود وتزول هذه « الأنا » الغيورة اللجوجة . لكن ما هو

موقف المرء ؟ يقول التاويون إن الشعور بالوجود عذاب وشر مهما يكن من أمر وضعه فى الحياة .

فهل يتغير وضع الكون ، لو لم تكن هناك هذه « الأنا » ؟

يجيب لاو تزو بأن طول العمر الحق ، مناطه الحقيقة القائلة بأنه وإن كان المرء يموت إلا أنه لن يضيع هباء .

وبالتالى ؛ لا يقتصر الحال بهذا الفيلسوف على الاستكانة للموت ، بل يبهجه التفكير فيه . باعتبار أن الموت يؤكد شخصيته تجاه عالم الكون اللانهائى . ومصداقاً لهذه الفكرة يقول تشوانج تزو — مريد لاو تزو — إن مكابدة تغيرات تتعدد أشكالها تعدداً هائلا ، يبعث فى النفس سروراً يفوق الحصر . ويقول بموضع آخر من كتابه « إن الحياة عندما تُقبل فلأن الوقت قد آذن بقدومها ، وعندما تروح فلنتيجة طبيعية للأحداث . وأن تقبّل جميع الأشياء التى تحدث باطمئنان وتحمل التبعة الطبيعية للأحداث فى سلام ؛ يكفل الصمود للأسى والألم على السواء . وهنا يتحرر المرء من العبودية » .

وفى الحق ؛ إذا كان المتصوف المسيحى أو المسلم يسعى إلى الفناء فى الله ، يرنو المتصوف التاوى إلى الفناء فى الطبيعة التى يدعوها « تاو » . فالتاوية تعشق الصفات المتصلة بالطبيعة والخصائص الفطرية البدائية ؛ تستقبح الصفات التى يصطنعها المجتمع ، والخصال التى يجلبها التعليم . ولقد استهوت حالة الفطرة مفكرين آخرين فى بلاد متعددة وأزمان متفاوتة . وهنا يقفز إلى خاطرنا اسم « جان جاك روسو » . ولقد تحدث أفلاطون فى كتابه « القوانين » عن الرجال البدائيين بأسلوب يشابه كثيراً أحاديث التاويين عنها فقال إنه يخلو من بينهم الغنى والفقير ، وأن مجتمعهم قد أصبح يقوم — بفضل هذا — على أشرف المبادئ حيث ينتفى منه الظلم والعتو والحسد والبغضاء ، وهم أخيار يتحلون بالبساطة والصدق .

٦ — أسلوبه فى التثقيف الذاتى

يتألف أسلوبه فى التثقيف الذاتى من :

١ — البساطة ، وهى مثل التاوية الأعلى ، لأنها تنبعث عن الطبيعة وهى هدفها المرتجى .

٢ — معرفة الذات .

٣ — ضبط النفس .

فالبساطة تطرح — بعيداً — الميول والنزوات بكافة أنواعها : التشوق للخمر ، الرغبة فى النساء ، الميل للثراء ، التحرق للمباهج والمسرات ، التشوف للرفاهية : وهذا هو ما يعنيه لاو تزو عندما يتحدث عن الألوان الخمسة التى تعمى أبصار الناس ، والنغمات النشاز الخمس التى تصم أسماعهم ، والمذاقات الخمسة التى تثير شهياتهم ، وركوب الخيل والصيد والقنص التى تربك عقولهم . ومن رأيه كذلك أن الأشياء النادرة والطريفة تثير رغبات البشر الشريرة .

ومن رأيه أن معرفة الناس ، نوع من الحكمة ، لكن معرفة الذات هى الضياء . وتجتنى الحكمة من بيئة الإنسان ومن خارج ذاته ، لكن الضياء الحق يفد من داخله ، فاذا ما غشيت الصفاء الداخلى سحابة ، حط الضباب على الحكمة . والإنسان القوى — فى نظره — ليس من يتغلب على بقية الناس ، لكن من يقهر نزواته ويكبح جماح نزعاته .

وثمة نظرية هامة فى كتاب لاو تزو تتصل بموضوع الضعيف والمستكين . فانه يؤمن بأن فى وسع الضعيف المستكين أن يقهر القوى ويتغلب على العسير . ويسوق لفكرته هذه تفسيراً يربط بينها وبين نظريته عن التغير الدورى . فالضعيف يغلب القوى فيصير هو ذاته قوياً ، وعندئذ يصبح ضحية للضعيف .

ويبدو هذا التأويل معقولا للوهلة الأولى ؛ إلا أن تقييم فكرة الاستكانةو الضعف ، يثير أمام الباحث طائفة من المشكلات . إذ يوجب لاو تزو الاستمساك الشديد بصفة الاستكانة . ولو اتبعنا نصحه بالتزام الضعف والاستكانة لنبلغ القوة ؛ أفليست مرحلة القوة — وفقاً لنظرية دورية الضعف والقوة — قصيرة الأمد وتعقبها مرحلة ضعف . . . وهكذا دواليك ؟ وبالأحرى لا فائدة ترجى من اتباع الضعف وانتهاج الاستكانة فى الحياة .

وينبنى على حتمية تحول الشئ إلى نقيضه (بعد بلوغه منتهى تقدمه — أو تأخره حسب الأحوال) سلامة مبدأ التزام السكون وانتهاج خطة اللامبالاة تجاه عالم يفيض بالحركة المستديمة والتغير المستمر . لكن ثمة اعتراض على تفسير رأى لاو تزو عن حركة تحول الأشياء — تفسيراً يستند إلى مبدأ دورية التغير — ومبناه أن ثمة فارقاً جوهرياً بين مظهرى التغير : التقدم والتأخر ، القوة والضعف . . . الخ . ويجب هذا الفارق فكرة التغير ذاتها . فالتقدم بطئ متدرج والتأخر سريع وفجائى . وعملية التأخر أشبه ما تكون بطريق منحدر يجهد المرء فى بلوغ قمته ، فاذا ترك نفسه هوى إلى القاع سريعاً . ولهذا يدعو لاو تزو إلى التزام القناعة وأن يجهد المرء نفسه لمعرفة متى يقف خشية أن يهوى إلى القاع . وفى هذا يقول :

« ان التزمت القناعة ، لن تكابد الخزى ، وان عرفت متى تقف فلن تجابه الخطر » ويقول بموضع آخر من كتابه « القانع غنى » .

ويبرز هذه النقطة فى عبارة تتسم بالقوة وردت بالفصل السادس والأربعين من كتابه :

« ليست هناك جريمة أبشع من تزايد الرغبات ، ولا نكبة أفظع من العزوف عن القناعة ، ولا نازلة أسوأ من الجشع » .

والإنسان تدفعه الرغبة والطمع إلى التماس الجزاء الحسن والمكانة المرموقة . ولمقاومة نزعاته الكامنة فى فطرته ، لا بد من تلقينه — باستمرار — دروس القناعة وتعريفه الحد الذى تتوقف عنده رغباته . ولا سبيل للإنسان إلى إدراك خطورة التطلع إلى المزيد من الثراء والجاه — كما يقول لاو تزو — إلا أن يتحقق بأن ما لديه يكفيه .

٧ — نظامه الخلقى

للاو تزو وجهات نظر ثلاث تجاه الأخلاقيات :

الأولى : الشفقة والتعاطف :

الثانية : حسن التدبير :

الثالثة : التواضع .

ويحذر الناس من التخلى عن هذه الأمور لأنهم لو فعلوا ذلك لتعجلوا الموت بأيديهم .

وثمة مبدأ رئيسى عند لاو تزو يقضى بانسجام اتجاهات المرء الخلقية مع نواميس الكون الأساسية والحرص على الابتعاد عن التمرد عليها . ويعتقد بضرر النظم الاصطناعية وخطأ جميع ضروب الكد والكفاح . ولا تعنى حملته على الكفاح الحكم على أوجه النشاط جميعها بالخطأ ، لكن ينصب حكمه على ما يبذله المرء من جهد وعناء لتحقيق آمال فوق متناول قدرته ، فتثور نفسيته ويضيق صدره . وهذا ما يعنيه تشوانج تزو — خليفة لاو تزو والمعلم الثانى للفلسفة التاوية — بقوله : أولئك الذين يدركون أوضاع الحياة ، لا يرومون انجاز شئ تعجز الحياة عن إتيانه ، ومن يعلم تصاريف القدر لا يتطلع إلى ما فوق متناول المعرفة » .

ومن شروط التقدير السليم عند التاويين ؛ كفالة التوازن بين الادراك الحكيم لما يمكن تنفيذه ، وما لا يتأتى القيام به من الناحية الأخرى . ومن الأمور الهامة فى هذا الشأن ؛ التسليم بأن جميع الأشياء نسبية ، وفى هذا

يقول لاو تزو « إن إجماع الناس على وصف شئ بالجمال ، هو السبب فى إدراك عقولنا فكرة القبح » . ويسوق تشوانج تزو المثال التالى لإيضاح فكرة النسبية « إذا نام إنسان فى مكان رطب يحس بآلام مبرحة فى ظهره بعد استيقاظه ويشعر وكأنه نصف ميت . لكن هل يصدق هذا القول على ثعبان الماء ؟ ، لا يمكن للإنسان أن يعيش فى الأشجار كالقردة . إن الناس يأكلون اللحوم ويتغذى الغزال بالحشائش ويهوى الجريش أكل الثعابين ، ويستمتع البوم والغراب بالتهام الفئران » .

ويطبق تشوانج تزو هذه النسبية على المسائل الخلقية فيقول « . . . فيما يتصل بالخطأ والصواب ، ليس الصواب صواباً مطلقاً ، كما لا يمكن إعتبار الخطأ خطأ مطلقاً . . . فلنعمل على تنسيق مظاهر الحياة داخل إطار الكون الشامل ولندعها تنطلق فى سبيلها . . » .

وبالأحرى ؛ إذا لم يكن هناك شئ مؤكد ، يصبح كفاح الإنسان المضنى لاجتناء النجاح عبثاً . وفى هذا يقول لاو تزو « إن الإنسان الذى يقف على إصبع قدمه لا يقف وطيداً ، وهذا الذى يسير بأوسع الخطى لن يقطع مسافات الأرض كلها » وينصح الإنسان بقوله « إن رغبت أن يحتفظ نصلك بحدته ، فاجتنب أن يصبح أشد مضاء . ولتجنب سطو اللصوص على منزلك فلا تملأه بالذهب والجواهر الكريمة . الثروة والمنزلة الرفيعة ، تقود الإنسان إلى الدمار ؛ مثلما أن حاصل جمع اثنين واثنين أربعة بالتأكيد » .

وتنادى فلسفة لاو تزو ومريديه بتوقى التوتر النفسانى واجتناب القلق العقلى فى أية صورة من الصور. وقد وردت بمؤلفات التاويين أمثلة عديدة توضح أن القلق عدو الإجادة فى العمل وخصم التصرف الحميد ، وسبيل ارتكاب الأخطاء . فيجب أن تكون الطمأنينة سبيل المرء . ويمحض لاوتزو الإنسان النصح بأن يتكلم أقل ما يمكن ، لأن هذا هو أسلوب الطبيعة : فالسماء والأرض تعجزان عن استدامة العاصفة أو الأعصار ، وأن أولئك الذين يعلمون لا يتكلمون ، والذين يتكلمون لا يعلمون .

ومن رأيه أن فى وسع الناس توقى المتاعب إن أقلعوا عن التعلم . وينصحهم بنبذ الحكمة والتخلص من الفطنة ليكونوا أهنأ حالا مائة مرة ! ! فالعبرة لديه بانتهاج سبيل الحق ، أى الطريق الذى تمليه الطبيعة . ويقرر «تشوانج تزو» أنه قد أتى على الإنسان حين من الدهر كانت فيه حكمة الشيوخ كاملة ، وذلك وقتما لم يكونوا قد أحسوا بوجود الأشياء ، فلما عرفوها بدأوا فى تمييز أحدها عن الآخر ، ثم أقبلوا على تصنيفها ، فانبعث إلى الوجود اصطلاحا « الخير والشر » و« الخطأ والصواب » و « النافع والضار » . . . الخ . وها هنا انتهك البشر حرمة الطبيعة فأحاط بهم الأذى من كل جانب .

٨ — نظرية لاوتزو السياسية

استخدم لاو تزو اصطلاح « حكيم » فى مؤلفه أكثر من عشرين مرة للدلالة على الحاكم الذى ينتهج الطريق السوى ويلتزم الحق فى أفعاله . ويعتبر الدولة شيئاً رقيقاً يتأثر بأقل خطأ أو أدنى رعاية . وشبّه الحكم بإناء مقدس تجب المحافظة عليه وتحاشى العبث به مهما كانت الظروف والأحوال . ويعد الدولة جزءاً من نظام الطبيعة القدسية . ويتسم النظام الطبيعى بتوازنه الدقيق ، فأى تدخل — مهما ضؤل — يُقدم الحاكم على إتيانه ، يخل بهذا التوازن ويقود إلى اختلال النظام واضطراب الأمور وفسادها .

والدولة المثالية عند لاو تزو ومريديه هى التى يتصف شعبها بالبراءة وصدق النية وسلامة الطوية ، ويتحرر رعاياها من الرغبة . ولا يقصد بالرغبة — هنا —

الضرورات الأساسية مثل الطعام والكساء . فان الطعام لدى العقيدة التاوية ، وسيلة لسد الجوع والكساء أداة لدفع غائلة البرد . لكن إن تجاوز الطعام والكساء كفالة الغايتين ، أعتُبرا ترفاً ورفاهية تجب محاربتهما . فأصناف الطعام الدسمة التى يقصد بها إمتاع التذوق ، رغبة ذميمة يجب كبتها ، والأردية الغالية القيمة التى ترتدى لارضاء نزعة التظاهر ، رغبة كريهة يجدر كبح جماحها .

وهناك رغبات يستنكرها لاو تزو ويعتبر الحاكم مسئولا عن وجودها ، وتتمثل فى الألقاب والوظائف وما إليها من أسباب التمايز الاجتماعى . ولذلك ينصح الحاكم بالامتناع عن إنشاء ألقاب الشرف ، فان تمييز بعض الناس عن بقيتهم يحيق أبلغ الأضرار بالمجتمع . ونجده يقول :

« ليس بتكريم أهل الفضل تصد الناس عن المنازعة وليس بتقدير الأعمال الطيبة — وهى لا تتم لذاتها — تمنعهم عن ارتكاب السرقة . ولن تجدى الاشادة بالأفعال الكريمة فى صرف أذهانهم عن الشر » .

ومن رأى لاو تزو أن الرغبة تنشأ عن المعرفة . والرغبة — كما ذكرنا — هى لديه مصدر شقاء الإنسان وتعاسته . ولهذا ينصح الحاكم بالعمل للحيلولة دون اكتساب رعاياه معرفة تستثير رغباتهم الكامنة . والرغبات هى التى تعمى الناس عن سلوك سبيل الطبيعة — طريق الحق والصدق والاستقامة الذى يقودهم إلى السعادة الحقة . والحاكم الحصيف — فى رأيه — من يعمل على أن يستبقى للشعب بساطته ووداعته ، بحمايته من المعرفة التى تستل من عقله الباطن رغبات جامحة تزعزع طمأنينته النفسية .

وعلى الحاكم — بالمثل — أن ينكر ذاته فى علاقته بالشعب . أو بتعبير لاو تزو : « الحكيم من ينفع الشعب ولا يسعى إلى نيل إعترافه بالجميل . هو من يؤدى واجبه العام ولا يباهى بفضله على رعاياه . فاذا عاد جهده عليهم بالخير ، فليتوقع منهم النكران » .

ويقول فى الفصل السادس والستين من كتابه (الفقرة ١٦٠) :

« على الحاكم أن يتواضع أمـــام رعاياه ، ومن يتصدى لقيادة شعب فمكانه آخر الصفوف » .

ومن رأى لاو تزو أنه كلما كثرت القوانين فى دولة ، استفحل خطر اللصوص والمرتشين وقطاع الطريق . وينذر الحكام بأن تماديهم فى الجور والطغيان يدفع رعاياهم إلى إيثار الموت على الحياة ، فلن يخشوا بطشه وتنكيله ، فيخرجون — على طول المدى — على الحاكم الظالم .

وفى الحق ؛ أن ثمة عنصراً من الفوضوية فى تعاليم التاوية ، بلغ درجة من الخطورة فى صيحة بعض التاويين بترك العالم يسير وفق هواه وأن لا داعى لتقييد حرية الناس باقامة حكومة ، حتى وإن تكن صالحة .

وقد حوت مؤلفات التاويين أنباء عن حكماء ترفعوا عن تولى مناصب رئاسة الوزارة ، بل زهد كثيرون فى تسنم العرش . ويؤثر عن فيلسوفهم العظيم تشوانج تزو أن ملكاً من ملوك الصين دعاه لمقابلته ليعرض عليه تولى منصب رئيس الوزراء فرفض مؤثراً صيد الأسماك . ذلك لأن هذا الفيلسوف من مريدى لاو تزو — مثل جميع الصوفيين الصادقين — قد وجد فى التجربة الصوفية ذاتها ، الرضى الروحانى المرتجى فلم تعد له حاجة بأوجه النشاط وألوان الجزاء التى ينشدها الإنسان العادى . وطبيعى — والحالة هذه — أن يكون معتنق مذهب لاو تزو — التاوى — أبعد الناس عن العجب والخيلاء .

ومهما يكن من أمر مبادئ لاو تزو ؛ فاننا نجد فى بعض مؤلفات مريديه عبارات تشير إلى هدف السيطرة على العالم . فهم قد تنافسوا مع غيرهم من أتباع المدارس

الفلسفية المختلفة فى ابداء الرأى فى أمثل الطرائق لتوحيد العالم الصينى فى إمبراطورية تقر النظام والأمن . ورنا كثير من التاويين إلى تولى مناصب القيادة بحجة أنهم أعرف من غيرهم بما يجلب السعادة إلى الناس ، ولو أنهم اشترطوا أن يلتزم التاوى فى حياته ومعيشته : البساطة الأصيلة .

وتطالعنا عبارة وردت فى كتاب لاو تزو « الحاكم الأريب هو من يفرغ أذهان الناس ويشبع بطونهم ، يُضعف إرادتهم ويقوى عظامهم . يجاهد فى إبعادهم عن المعرفة ويقعدهم عن التفكير فى الانتقاص عليه . وإذ يثبط عزمهم عن الشغب ، يستتب النظام فى كل مكان»

وظاهر أن هذا القول ينأى بنا بعيداً عن ادعاء التاوية بسعيها لكفالة الحرية الفردية . فانها تلقى فى أيدى الحكام حرية التصرف بمقادير شعوبهم . وذلك لافتراضها حسن نية الحاكم ، باعتبار أنه لن يتولى منصب الحكم الخطير إلا حكيم يعتنق المذهب . وبالتالى فانها تضع السلطان فوق الصواب والخطأ استناداً على إيمانه بأيديولوجيتها . ولا شك أن لفكرة لاو تزو عن الحاكم الأريب المنزه عن الخطأ — الذى يعتنق مبادئه — نتائج رهيبة لو انتقل الحكم إلى أيدى غير أمينة . إذ يصبح اصطلاحا الخطأ والصواب — لديه — مجرد كلمتين يستخدمهما الجاهل والأحمق ، وما الحياة والموت والفساد والتدمير إلا ظواهر وأجزاء — وفقاً لمنطقه — من نظام الكون المتناسق . فالحقيقة لديه نسبية تخضع لأحكامه الخاصة ، ولا يستمد صلاحيته إلا من وجوده ومن ذاتيته نفسها . والفلسفة التاوية إذ تتضمن هذا الرأى عن سياسة الحاكم التاوى ، إنما تُطلق على البشرية وحشاً كاسراً لا يتأثر إلا بمصلحته وحدها . وليس ثمة شك فى تأثير هذه الفكرة على سلوك طائفة من حكام الصين الذين اشتهروا فى التاريخ الصينى بالجور والاستبداد .

ومن سخريات القدر أن التاوية — وهى فى صميمها فوضوية المنحى تماماً — تقترن اقتراناً وثيقاً بنظام الحكم . ذلك لأن بعض الحكام قد اتخذ من بعض آراء لاو تزو ركيزة فكرية لاقتراف آثام الجور والطغيان . على أن ما جبل عليه الخلق الصينى من سماحة ووداعة ، قد حد كثيراً من خروج هذا الجانب إلى حيز التنفيذ على نطاق واسع .

ومهما يكن من أمر هذا الجانب من التاوية ، فان حرية الفرد المطلق ليفعل ما يشاء ويتبع هواه ويسير وفق نزواته ، هو الجانب الغالب فى منحى التـــاوية التفكيرى . ولهذا يصعب على المرء أن يتصور مجتمعاً يحكم وفقاً لمنهاج فلاسفتها ، سيما وأن الدولة المثالية — عند هؤلاء الفلاسفة — سكانها قليلون وأهلها غير متعلمين أو تعليمهم بسيط ، يعزفون عن الحرب ، ويصدفون عن الترحال ، ولا يختلطون بغيرهم من الأمم إلا فى أضيق الحدود الممكنة ، وحظهم من الحضارة ضئيل . وتذكرنا هذه الفكرة بما ورد فى كتب المدن الفاضلة (الطوبيا) عن المجتمعات التصورية .

٩ — فكرته عن الحرب

ألف لاو تزو كتابه وقتما كانت الصين تنقسم على نفسها إلى عدد ضخم من الممالك تتجزأ بدورها إلى إمارات لا حصر لها . ويشتبك الجميع فى حروب ومنازعات لا تنتهى ، أنهكت قوى البلاد الاقتصادية وأضعفت كيانها السياسى وضعضعت طاقاتها الاجتماعية فكان أن غدت مسألة البقاء على قيد الحياة ، شغل الفرد الشاغل . وهكذا ، اتجهت حكمة لاو تزو صوب حل مشكلة كفالة الحياة الآمنة للفرد . وقد صور هذه المشكلة فى العبارة التالية « من يقيض له أن يعيش أيامه ، تكتب له حياة طويلة » .

وعبر لاو تزو فى كثير من مواضع كتابه عن

كراهيته للحرب وإيثاره السلام . ومن قبيل المثال ، قوله :

« الأسلحة نذر شر . . . ولا تستخدم الجياد فى الحروب إلا فى دولة انحرفت عن الطريق السوى . . . فاذا نُشب القتال ، فعلى المرء أن ينتحب ويبدى أسفه . فان قيض لبلده النصر ، فليقم بفروض الحداد على ضحاياه » .

وقوله :

« حيث تعسكر الجيوش ينبت العوسج ، وفى أعقاب الجيوش الجرارة ينتج المحصول الردئ » .

على أن لاو تزو يبرر استخدام القوة فى حالة الدفاع ضد معتد لم تُجد معه وسائل الاقناع بالجنوح إلى السلم . وعنده أن الهزيمة نصيب المعتدى الآثم فى نهاية الأمر . ومن رأيه أن توافر الحكم الصالح فى بلد ، يصدف المعتدى عن مهاجمته ؛ وأن فساد الأمور فى دولة يغرى الطامعين بالعدوان عليها .

١٠ — الحكم على مدرسة لاوتزو الفكرية

يقول تشوانج تزو خليفة لاو تزو :

« نشط ذهنك واستكن فى وضع لا تعمل فيه شيئاً ، فان الأمور جميعها تعنى بنفسها . اجعل جسمك يسترخى ، وتناسى المبادئ والحاجات . اطرح نفسك فى محيط الوجود ، فك ذهنك من أغلاله ، حرر روحك ، التزم السكون كما لو أنك جماد . . . إن جميع الأشياء تؤوب إلى جذورها دون أن ندرى ما تفعله ، ولكونها تفتقر إلى المعرفة ، فانها لا تتخلى قط عن حالة البساطة البدائية » .

فالنسبية مبدأ هام للغاية فى الفلسفة التاوية يتمثل فى شعاريها المشهورين : لا تقلق ولا تفعل شيئاً ، كل شئ يسير وفق المرام » .

ويتفرع عن السلبية مبدأ آخر هو التأمل . وأساسه امتناع الإنسان عن الاهتمام بالقوة الدنيوية وبالمركز وبمراتب الشرف ، وفى وسعه إعتزال الناس فى فلاة فيصبح ناسكاً . فاذا ما أقام بينهم ، فأجدر به إظهار اللامبالاة بشعورهم تجاهه . واللامبالاة والركون إلى السكون والالتزام بالقناعة بأوطأ منزلة فى الدنيا ؛ آراء تتنافى مع الطبيعة البشرية وتجافى الحقائق العملية ، مما يدعو معتنقها إلى أن يضيق ذرعاً ويسعى إلى التمرد عليها . وهذا ما يدعو مريدى لاو تزو إلى إغراء الناس باعتناق آرائهم بالادعاء بأن الحكيم التاوى بامتناعه عن الفعل ، يفعل — فى الواقع — كل شئ ، وأن ضعفه المطلق ، يمكّنه من التحكم فى العالم .

وهنا تنتقل التاوية من ناحية « التأمل » إلى ناحية « الغائية » . ويتبدى لنا مدى تأثير المذهب الصوفى على التاوية . فان الـ « تاو » هو المطلق ، هو المجموع لكل ما هو كائن . فلو اعتبر المرء نفسه مجرد جزء من ذلك المجموع ، فواضح أنه مهما يكن من أمر ما يحدث له ، فلن يناله أذى — لكونه لا يعترف بالأذى — ومن لا يمكن الحاق الأذى به ، يصبح منيعاً ، والمنيع أعظم قوة من جميع من ينالونه بالأذى ، فيرتفع إلى مرتبة زعامة المخلوقات كلها لأنه أقواهم . ويتم هذا الانتقال فى صور متعددة . فالحكيم التاوى يستعصى على الإخفاق ، يوفق دائماً ، ومن يتصل توفيقه لا تنفد قواه :

ويحمل هذا الجدل بين طياته ، شيئاً غير قليل من السفسطة والمنطق المغلوط . بيد أنه لا يخفى أن الإيمان الصادق بالوفاق مع اللامتناه واعتقاد الإنسان باتحاده مع قوى الكون ، يضفى عليه الثقة بالنفس . وهذا ما جعل لأتباع لاو تزو فى الماضى تأثيراً عارماً على من يحتكون بهم وأوحى إلى الناس بأنهم مستودع الحكمة .

وأن مدرسة لاو تزو الفكرية ، وإن عادت الكنفوشيوسية وناهضت التنظيم الحكومى ونبذت

الديمقراطية؛ إلا أنها — من الناحية العملية — قد شاركت الكنفوشيوسية فى استنبات هذا القدر العظيم للغاية من الديمقراطية الاجتماعية والسياسية التى عرفتها الصين. وإذا كانت الكنفوشيوسية قد أعلت من مكانة الفرد وأبانت أهمية اعتباره غاية وليس مجرد وسيلة؛ فقد نادت مدرسة لاو تزو بحقه المطلق فى تكييف مصيره الروحى. وأن تقدير هذه المارسة العظيم لاتحاد الإنسان مع الطبيعة، قد بات وحياً وإلهاماً للفن الصينى، و زود الشعب الصينى بطاقة عظيمة من الحيوية مكنت ثقافته من الصمود لتقلبات الدهر.

وأن مدرسة لاو تزو الفكرية (أى الفلسفة التاوية) بتوكيدها الرائع للذاتية الشخصية وبعقيدتها عن نسبية القيم جميعها، قد ساهمت مساهمة تفوق الحصر فى استطالة النزعة الفرديةوفى تقديس الصينيين لمبدأ التوفيق بين الآراء. وتعتبر هاتان النزعتان من أعظم عناصر النفسية الصينية أهمية. وأن ما يؤثر عن الشعب الصينى من رقة وتواضع، يرجع — إلى حد كبير — إلى تأثره بالآراء التى بسطها لاو تزو فى كتابه.

١١ — مقتطفات من كتاب لاو تزو

— ١ —

التاو يشبه الاناء، وقد يبدو للناظر السطحى فارغاً
لكن يمكن سحب الماء منه إلى ما لا نهاية، ولا يحتاج لأن يملأ قط؛
إنه جسيم وعميق، ويبدو كما لو أنه سلف جميع الأشياء جميعها.
فيه تغوص أحدّ الأسنة فتصبح ملساء.
بوساطته تحل أعقد المشكلات.
ومنه يشع نور ساطع يخطف الأبصار؛
يحوّل المركب إلى البسيط؛
إنه ساكن مثل السرمدية، ولم يولد؛

— ٢ —

تنبعث إلى الوجود الحشود الهائلة من الأشياء.
ويفرط بعضها فى النمو، ولا أهمية لذلك.
إذ يجب أن يؤوب كل منها إلى الجذر الذى جاء منه
وهذه العودة إلى الجذر هى الطمأنينة، وهى تحقيق لمصير الواحد.
وأن قيام الواحد بتقرير مصيره هو النموذج الخالد.
والاستنارة هى ثمرة معرفة النموذج الخالد.
ومن يحظى بالمعرفة لن يؤثر فيه الحظ السئ؛
ويحيط بكل شئ علماً.
ومن تقيض له الاحاطة الشاملة، يخلو من الأهواء تماماً، وهنا تتسامى ذاتيته.
والسامى مثل السماء، ومن هو مثلها تصبح مرتبته مع التاو.
ومن يصبح مع التاو، يغدو مثلها خالداً لا يفنى.
فان توارى جسمه فى محيط الوجود، يصبح أبعد من أن يصيبه ضرر.

— ٣ —

إن كنت لا تود إراقة النبيذ، فلا تملأ الكأس أكثر من اللازم.
ان رغبت أن يحتفظ نصلك بحدته، فاجتنب أن يصبح أشد مضاء.
إن الثروة وعلو المنزلة والعجرفة، تدفع الإنسان إلى التهلكة.
فعندما تؤدى رسالتك وتتوطد شهرتك، انسحب من المجتمع.
فهذا هو طريق السماء.

— ٤ —

فهمك للآخرين يجعل منك حكيما، لكن فهمك لذاتك يحيلك إلى مستنير.
المرء الذى يقهر الآخرين قوى، لكن من يقهر نفسه مقتدر.

وهذا الذى يستحوذ على أنفس الأشياء ، تصبح خسارته أفدح .

والمرء الحكيم هو من يتوقف باختياره فيظل قائماً على رجليه .

وليست هناك نكبة أفظع من عدم القناعة .

ولا فاجعة أبشع من الرغبة فى الحصول على المزيد.

فلو أن إنساناً جرب ذات مرة الرضى العميق الناجم عن القناعة الحقة ، فانه لن يرضى مرة أخرى أن يكون غير ذلك .

فما الذى يفعله المرء ؟

— ٥ —

الكلمات الصادقة ليست مزوقة ، والكلمات المزوقة ليست صادقة .

الإنسان الصالح لا يجادل ، ومن يجادلون ليسوا صـــالحين .

الحكيم ليس عالماً ، والمتضلعون ليسوا حكماء .

— ٦ —

وفيما يلى طائفة من حكمه المأثورة ، وتحتوى على شئ غير قليل من التناقض الذى أشرنا إليه فى هذه الدراسة .

١ — اياك وأن تظهر أنك الأول فى العلم .

٢ — تبدو المهارة المتناهية كالغباء ، والفصاحة كالعى .

٤ — حتى فى الانتصار ينتفى الجمال ، ومن يرى فيه جمالا هو من يبتهج لرؤية مذبحة .

٥ — يجب الاحتفال بالنصر باقامة شعائر الجنازات

٦ — تسلح السماء بالحب أولئك الذين لا ترغب فى دمـــارهم .

٧ — الكريم الجواد يتعاظم رزقه :

٨ — قابل الكراهية بالمحبة .

٩ — صدق الأمناء ، وصدق الكاذبين .

١٠ —العارف لا يتكلم والجاهل يتكلم .

